

آيات ١ في خلق الإنسان



«في نهاية القرن السابع عشر عندما اكتشف الميكروسكوب الكبير.. المجهر.. تصوّروا بعد أن شاهدوا الحيوانات المنوية.. مع أنّ المجهر كان صغيراً في ذلك الوقت.. تصوّروا أنّ الإنسان بذرة مثل الشجرة الصغيرة.. فتصوّروا أنّ الإنسان مختزل في الحبّة المنوية فرسم له العلماء صورة وتخلّوا الإنسان يوجد كاملاً في النطفة المنوية غير أنّّه ينمو.. ومنذ 60 عاماً تأكّدوا من أنّ الإنسان لا يوجد إنسان دفعة واحدة إنما يمرّ بأطوار ومراحل طوراً بعد طور ومرحلة بعد مرحلة وشكلاً بعد شكل منذ 60 عاماً وصل العلم إلى إحدى الحقائق القرآنية.

يقول الشيخ الزنداني التقينا مرة مع أحد الأساتذة الأمريكيان بروفيسور أمريكي من أكبر علماء أمريكا اسمه بروفيسور مارشال جونسون فقلنا له: ذكر في القرآن أنّ الإنسان خلق أطواراً فلما سمع هذا كان قاعداً فوق وقال: أطواراً؟! قلنا له: وكان ذلك في القرن السابع الميلادي! جاء هذا الكتاب ليقول: الإنسان خلق أطواراً!! فقال: هذا غير ممكن.. غير ممكن.. قلنا له: لماذا تحكم عليه بهذا؟ هذا الكتاب يقول: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) (الزمر/ 6) (مَّا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) (نوح/ 13-14). فقعد على الكرسي وهو يقول: بعد أن تأمل: أنا عندي الجواب: ليس هناك إلا ثلاث احتمالات: الأول: أن يكون عند محمد ميكروسكوبات ضخمة.. تمكّن بها من دراسة هذه الأشياء وعلم بها ما لم يعلمه الناس فذكر هذا الكلام! الثاني: أن تكون وقعت صدفة.. وهذه جاءت صدفة. الثالث: أنّه رسول من عند الله.

قلنا: نأخذ الأول: أمّا القول بأنّه كان عنده ميكروسكوب وآلات أنت تعرف أنّ الميكروسكوب يحتاج إلى عدسات وهي تحتاج للزجاج وخبرة فنية وتحتاج إلى آلات وهذه معلومات بعضها لا تأتي إلا بالميكروسكوبات الإلكترونية وتحتاج كهرباء والكهرباء تحتاج إلى علم وهذه العلوم لا تأتي إلا من جيل سابق ولا يستطيع

جيل أن يحدث هذا دفعة فلابد أن للجيل الذي قبله كان له اشتغال بالعلوم ثم بعد ذلك انتقل إلى الجيل الذي بعده ثم هكذا... أمّا أن يكون ليس هناك غير واحد فقط.. لا أحد من قبله ولا من بعده ولا في بلده ولا في البلاد المجاورة والرومان كذلك كانوا جهلة ما عندهم هذه الأجهزة والفرس والعرب كذلك! واحد فقط لا غير هو الذي عنده كل هذه الأجهزة وعنده كل هذه الصناعات وبعد ذلك ما أعطاه لأحد من بعده.. هذا كلام ما هو معقول! قال: هذا صحيح صعب نقول: صدفة.. ما رأيك لو قلنا لم يذكر القرآن هذه الحقيقة في آية بل ذكرها في آيات ولم يذكرها في آية وآيات إجمالاً بل أخذ يفصل كل طور: قال: الطور الأول يحدث فيه وفيه الطور الثاني كذا وكذا والطور الثالث.. أيكون هذا صدفة؟! فلما عرضنا التفاصيل والأطوار وما في كل طور قال: الصدفة كلام غلط!! هذا علم مقصود قلنا: ما في تفسير عندك: قال: لا تفسير إلا وحي من فوق .

هذه النطفة هذا المنى.. منى الرجل ومنى المرأة.. هذا كلاًه فيه ماء المرأة وماء الرجل ومن بين هذا المنى هذه النطفة قطرة كبيرة.. في داخل النطفة بويضة المرأة أغلقت الأبواب! ممنوع دخول حيوان منوي ثاني قصة الأمر فإذا انتهى.. بدأت تتخلق وهذا أول طور من أطوار الإنسان (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) (المؤمنون/ 12-13). هذه النطفة في لغة العرب معناها القطرة.. نطف الإناء يعني قطر الإناء إحداها نطفة.. يعني قطرة من سائل هذا السائل وهذه القطرة.. هذه النطفة يتقرر فيها كل شيء بالنسبة للإنسان.. كل صفات الإنسان تتقرر وهو نطفة وتتقدر وهو نطفة ولذلك قال تعالى: (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) (عبس/ 17-19). من قال لسيدنا محمد: إن الإنسان مقدر في داخل النطفة بكل تفاصيله التي سيكون عليها ثم من ضمن ما سيقدر به هذا الإنسان كونه ذكراً أم أنثى؟.

فهنا أن في هذه النطفة يتقرر ما إذا كان هذا المخلوق ذكراً أم أنثى.. هل تصوّر أحد من البشر أن نطفة الماء حال الإنماء يتقرر مصيرها وما يخرج منها ذكراً وأنثى؟! هل يخطر هذا بالبال؟! لكن القرآن يقول: (وَأَنزَلْنَاهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى) (النجم/ 45-46). حال إمناة إذا تمنى.. وقد قدر ما سيكون عليه ذكراً أو أنثى قد تحدث!! من أخبر محمّداً بذلك (ص) إلا . هذه حاملات الوراثة داخل النطفة تلك.. هذه لم تُعرف إلا بعد اكتشاف الميكروسكوب الإلكتروني والميكروسكوب الإلكتروني من الأربعينيات.. يعني له نصف قرن تقريباً منذ أن عُرف.. عرفوا أن الذكورة والأنوثة تتقرر في النطفة.. يعني كنا في أوائل القرن العشرين وكانت البشرية بأجمعها لا تعلم أن الذكورة والأنوثة مقررة في النطفة لكن الكتاب الذي نزل قبل أربعة عشر قرناً يقرر هذا في غاية الوضوح وارجعوا إلى كُتُب التفاسير كلاًها تقرر هذا إيماناً بما جاء في هذا الكتاب .

هناك حديث عن الرسول (ص) يخبرنا عن النطفة أين تستقر؟ وكيف يكون حالها قبل الاستقرار؟ قال (ص): "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم". أي أن النطفة هذه تستقر في الرحم معناه أنزها كانت قبل الاستقرار.. أنزها كانت متحركة.. صحيح كانت متحركة.. هذه البويضة خرجت من الأنثى وهذه الحيوانات جاءت من الرجل من هنا.. فحيوانات الرجل جاءت من هنا وتركت إلى هنا وكان هذا مكان اللقاء ونطفة المرأة جاءت من هنا وتم اللقاء هنا وتم التلقيح وتركت هذا المكان وتحركت حتى وصلت إلى الرحم فاستقرت يعني ما كانت في حالة غير مستقرة ثم استقرت قال (ص): "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين" فمن أخبر محمّداً (ص): أن النطفة تأتي عليها فترة لا تكون فيها مستقرة ثم تستقر؟!.

هذه النطفة.. وهذا جدار الرحم.. هذه النطفة شقت جدار الرحم من هنا ودخلت كما تشق التربة وتوضع البذرة وتُدفن بالضبط هذه النطفة شقت الرحم وبعد ذلك دُفنت فغارت في لحم الرحم وغطى عليها ولذلك نجد جميع كُتُب الطب والتشريح والأجنة تذكر هذه المرحلة وتسميها مرحلة الغرس.. ويشبههون الرحم بالتربة التي وضعت فيه البذرة وهم بتشبيههم هذا يظنون أنهم يأتون بالوصف الدقيق المتلائم مع الواقع ولكنهم سيفاجئون عندما يرون آية تصف المرأة وتقول: (نَسَاؤُكُمْ حَارِثٌ لِّكُمُ) (البقرة/ 223). أي أنزها موضع الحرث ويكون فيها حرث لاحتوا أيها الإخوة هذه النطفة وهي تدخل إلى هنا أول علاقة لها بالرحم قالوا: ماذا يحدث؟ قلنا: تغور.. تدخل.. يحدث هنا شيان: الشيء الأول: أن الرحم يأخذ من النطفة غلافها.. الغلاف يؤخذ منها والجنين ينفذ من هذا الغلاف وهذه المكونات ثم

المسألة الثانية: أنَّها تغور إلى الداخل فهناك شيئان: نقص للنطفة وغور لها هناك لفظ عربي لا يوجد لفظ مثل هذا اللفظ يحقق المعنيين.. هذا اللفظ ذكره ابن في كتابه واصفاً لعلاقة الإنسان برحم أمه ولكني سأذكر معناه.. هذا اللفظ هو غاص.. الغيص.

قال تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءُ) (هود/ 44). فغاص تأتي بمعنيين تأتي بمعنى غار وتأتي بمعنى نقص أو تأتي بالمعنيين معاً: وغيص الماء أو غار وتأتي بمعنى نقص أو تأتي بالمعنيين معاً: وغيص الماء أو غار الماء ونقص.. فغاصت النطفة هنا تأتي بالمعنيين غار في جدار الرحم ونقص منه جداره وجزء منه لتكوّن منه المشيمة في الرحم ويبقى شيء آخر ابن يقول: (إِنَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّهُ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) (الرعد/ 8) وغيص الرحم هنا مفتاح من مفاتيح الغيب وهنا افتحوا أذهانكم هذه النقطة ميدان معركة ما بين طلاب المدارس الدينية وطلاب المدارس العلمية حول معرفة أنَّه ذكر أو أنثى .

أنتم لا تؤمنون أنَّ العلم اكتشف أنَّه ذكراً أو أنثى.. لا تؤمن خذ بطاقة الرجعيين.. وهذا يأخذ بطاقة الكفر هذا العلم السطحي يوصل إلى هذه النتائج لكن التعمُّق في العلم يوصل إلى غير هذا وما أقوله لكم - سبحان ابن - كنت أحسب أنِّي قد وصلت إلى هذا بعد طول عناء فإذا بابن كثير - رحمه ابن - يسبقنا إليه ويقرر المعنى الأمر الأول تقول: (إِنَّ ابْنَ ابْنِ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) (لقمان/ 34). فَهَمَّهَا النَّاسُ عَلَى عَمومها فلا يمكن لأحد أن يعلم أنَّ في الرحم شيئاً ومَنْ قال إنَّه عليم شيئاً فقد كفر كلَّ ما في الرحم (ابن كثير) جمع النصوص فكَّر فيها تأمَّل.. كيف يكون هناك مفتاح للغيب لا يعلمه إلا الله وقد ورد في الأحاديث الصحيحة: "أنَّ الملائكة تعلم ما سيكون عليه المخلوق في بطن أمِّه تعلم رزقه وأجله شقياً أو سعيداً ذكراً أو أنثى" تعلم عنه كلَّ هذه التفاصيل بل ما سيكون فكيف يقال بعد ذلك: إنَّ هذا العلم لا يعلمه إلا الله هذا ابن كثير شيخ السادة المتكلمين ..

هذا ابن كثير المرجع في التفسير يقول: كيف نجمع بين النصوص هل يكذب نص نصاً؟ هل النبي (ص) يكذب نفسه بنفسه يقول: (لا يعلم إلا الله) ثم يقول: (الملائكة تعلم).. لا والله إنَّه الجهل بفهم النصوص. نعم. الجهل فقر ابن كثير وجمع بين النصوص وهذا منهج العلماء قال: لا يعلم أحد من أمر الجنين شيئاً من العلم إلى ما قبل علم الملك فإذا علم الملك علمنا أنَّ غير ابن قد علم وهو الملك ومَنْ شاء الله من خلقه ..

وإذا هذه النصوص الخاصة خصت العموم وهذه الألفاظ المقيدة قيّدت الإطلاق فعلمنا الأمر المحجوب عن علم غير الله إنَّما هو في مرحلة من مراحل الجنين وتجلَّى الأمر بوضوح لا بكلام ابن كثير بل بكلام سيّد الأنبياء والمرسلين محمد (ص) حيث قال (ص) في الحديث الذي رواه البخاري عن عبداً بن عمر (رض) قال: مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم ما تغيص الأرحام إلا الله - (ما تغيص لا ما تزداد) ففرّق بين أمرين: الآية قالت: (إِنَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّهُ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) (الرعد/ 8). فالأرحام لها حالتان حالة تعلق بالجنين والله يعلم الحالتين بالتمام والكمال والمحجوب عن علم غير الله هو الغيص الذي يعلمه هو وحده "مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم ما تغيص الأرحام" فهذا قيّد لنا المرحلة من العلم هذا الأمر الأول أمّا الأمر الثاني: أنَّ ما تغيص الأرحام يسميه الرسول (ص) مفتاحاً من مفاتيح الغيب يفتح على أبواب علم قادمة ..

أي على أحوال قادمة فالذين ذهبوا إلى أنَّ الغيص هو دم الحيض هو فهم في الحقيقة لا يكون بهذا مفتاحاً للغيب دم الحيض ما هو مفتاح للغيب فالرسول (ص) يقول مفتاح الغيب: ما تغيص الأرحام - دم الحيض - ليس مفتاحاً للغيب لأنَّه لن ينشأ منه جنين أو إنسان أو مخلوق وبإجماع علماء المسلمين مفتاح الغيب متعلق بالأجنة وبإنسان الذي سيُخلق فإذا مفتاح الغيب هذا متعلق بالأجنة التي ستُخلق ومعلوم أنَّ دم الحيض لا يُخلق منه إنسان ومَنْ ذهب إلى هذا التفسير غير المقصود فهذا لا يستقيم مع المعنى أنَّه مفتاح من مفاتيح الغيب والله أعلم.. إذا ما تغيص الأرحام هذه مرحلة الغيص تأتي بعد هذا مرحلة الزدياد ..

في مرحلة الغيص هذه يستحيل على إنسان أن يعرف صفات الجنين. في هذه المرحلة مستحيل.. أتدرون لماذا؟ لأنَّه إذا صفنا صفيين.. لوجئت بصفين من الأحجار ووضعت الصفيين بجوار بعض وقلت لإنسان: أنا سأصنع من هذا بناء هل سيعلم أيكون من الصفيين مدرسة أم مستشفى؟ هل سيعلم أيكن منها فيلاً أم عمارة؟ صفيين فقط هكذا الإنسان في هذه المرحلة فلو أراد الإنسان أن يمتحن شيئاً من صفات هذا الجنين وأخذ خلية واحدة فلو نزع الجهاز التنفسي لأنَّ الجهاز التنفسي يكون هنا ممثلاً بخلية واحدة فلا يستطيع الإنسان أن يكتشف ما يكون أمر هذا المخلوق في مرحلة الغيص بينما هو مقدَّر تقديراً كاملاً ما سيكون عليه هذا الإنسان.

والتقيت بأحدهم فهذا المرشال جونسون الذي قام وقعد وهو من كبار المختصين بعلم الوراثة والدارسين لعلم (الكروموزومات) في أمريكا.. قلت له: هل حاولتم أن تعرفوا صفات الإنسان التي ستكون في المستقبل في مرحلة الغيص هذه؟ قال: نعم. حاولت لقد قمت بتجربة على بعض كروموزومات بعنى حاملات الوراثة واستمر بحثي عليها عشر سنوات وأنا أحاول أن أفهم كيف سينشأ مخلوق من هذا؟! وماذا سينشأ من هذا الجزء الذي بين يدي في المستقبل؟! وقلت له: ماذا كانت النتيجة؟ قال: بكيت!! قلت: لماذا؟ قال: لأنني فشلت ولم استطع أن أعرف شيئاً قلت له: أحسنت!! هذا عندنا موجود إنَّك لن تستطيع أن تعرف وإنَّ هذه المرحلة لا تستطيع أن تعلم عنها شيئاً ولا تستطيع أن تفهم عنها شيئاً.

إذاً أيَّها الإخوة نقول: معرفة ما في الجنين (أحوال وصفات الجنين) كما قال ابن كثير من قبل هي في فترة زمنية محددة يكون الجهل أمّاً إذا علم الملك انتهى أمّاً حديث الرسول (ص) فهو يفيد هذه المرحلة مرحلة الغيص ويجعلها هي مفتاح الغيب فإذا نقول: إنَّ مرحلة الازدياد مرحلة مفتوحة ممكن للإنسان أن يعلم وإذا رأينا متى علم الملك جاء في مرحلة الازدياد وإِ أعلم.. مفهوم هذا يا إخوان هذه صورة الجنين بعد أن يتحوّل من نطفة يتحوّل إلى هذه الصورة.. هذا الجنين وهذه صورة للعلق الذي يوجد في الماء.. الذي يتعلق في أفواه الأغنام والأبقار فيمتص منها الدماء.. هذا هو الطور الثاني وهذه هي العلقه وهذا هو الجنين يكون محاطاً بالماء والعلقه تكون محاطة بالماء. العلقه هذه تتعلق لتمص الدماء، الجنين أيضاً يتعلق ليمص الدماء.

كيب مور هذا العالم الذي قلت لكم عنه من كبار علماء الأجنة.. أخذ قطعة من الطين ومضعها بأسنانه ووضع هذه بجوار هذه وقال: هذه مضغة جنين وهذه مضغة بأسنان وهذه مرحلة ما بعد العلقه ولذلك قال تعالى: (فَخَلَقْنَا الْعِلَاقَةَ مَضْغَةً) (المؤمنون/ 14) المضغة من صفاتها.. أوّل ما تأخذ المضغة تمضعها تستطيل.. ثم تمضعها ثانية فيتغيّر شكلها ثم تمضعها ثالثة فتأخذ شكلاً ثالثاً وتمضعها مرة أخرى فتأخذ شكلاً آخر ومع كلّ مضغة هي تدور الجنين في هذه المرحلة بالضبط هكذا الجنين في هذه المرحلة تظهر فيه نقاط وكأَنَّها أماكن المضع ثم يدور.. فالمضغة هنا في الحقيقة أصدق وصف لها أنَّ فيها شيئاً قد تخلق وفيها جزء لم يتخلّق فأصدق وصف لها أنَّها مُخلقة وغير مُخلقة ولذلك جاء وصفها في القرآن بهذا الوصف (ثُمَّ مِّنْ مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ) (الحج/ 5) مَن قال لمحمّد (ص)؟ هل كان عنده أجهزة تشريح وقياسات؟!.

هذه عبارة عما وصل الجنين في هذه المرحلة واحد سم.. يعني قريب من واحد سم.. انظروا واحد سم يعني ماذا؟.. هذا الكلام داخل واحد سم. الآن العظام تبدأ في الزحف على الجمجمة.. هذه العين. هذه الجمجمة (فَخَلَقْنَا الْعِلَاقَةَ مَضْغَةً عِظَامًا) (المؤمنون/ 14) وفي كثير من النقاش مع الدكاترة كنا نسألهم: أيُّهما الأوّل العظام أم اللحم؟ فكانوا يقولون لنا: هما معاً في وقت واحد.. فلما كنا نطلب منهم مراجعة كُتُبهم فيعودون فيقولون: لا العظام ثم بسرعة يأتي بعده اللحم وفي ذلك قوله تعالى: (فَكَسَوْنَاهُ الْعِظَامَ لَحْمًا) (المؤمنون/ 14) فكسونا العظام لحماً.

هذا عندما ينتهى كساء العظام باللحم تبدأ مرحلة من المراحل.. أهم ما في هذه المرحلة أنَّ الجنين ينمو، ينشأ، يترعرع جسمه وبدنه ويكون أهلاً لكي تسكن الروح هذه المرحلة.. فإذا توقفنا عن قوله سبحانه: أنشأناه وجدنا أن ينشأ بمعنى أسكنت فيه الروح وينشأ بمعنى نما الجسد وترعرع وإذا بحثت في لغة العرب عن لفظ يدل على المعنيين: يدل على النمو ويدل على النشأة المحدثه لا تجد لفظاً غير ينشأ فإن نشأ يدل على النمو (إِنشأَ إِنشَاءً) (الواقعة/ 35) ويدل على الخلق وعلى الإيجاد من العدم وفي هذه المرحلة يحدث شيئان: أمّاً البدن فينمو وترعرع وأمّاً الروح فتنفخ وبهذا تتم النشأة الكاملة للإنسان (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) (المؤمنون/ 14) بعد خلق هذه

المرحلة لا يوجد مخلوق في الوجود يشابه هذا الإنسان لا يوجد حيوان ولا نبات ولا ملاك ولا جنى ولا أرض ولا سماء ولا شُهب ولا شيء في الكون مثل هذا الإنسان المكوّن من مادة وروح ثم لا توجد صورة من بني آدم تشبه هذه الصورة لهذا المخلوق صورة خلق آخر (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون/ 14).

أرأيتم الأطوار؟! أرأيتم المضغة؟! أرأيتم العظام؟! أرأيتم كساء اللحم للعظام؟! أرأيتم الإنشاء ليصبح خلقاً آخر؟! أرأيتم هذه الأطوار التي كانت محجوبة، اقرءوا معي بقية الأطوار في نفس الآية (ثُمَّ خَلَقْنَا الذُّطْفَةَ عَلَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلَاقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الُمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بِعَدَدِ ذَلِكِ لَمَيِّتُونَ) (المؤمنون/ 14-15).

المصدر: كتاب العلم طريق الإيمان